إبراهيم عبد النور
جامعة طاهري محمد ــ بشار

واقعية الممارسة النقدية في الرواية الجزائرية المعاصرة

ملخص

إن الحديث عن النقد في الرواية الجزائرية يثير إشكالية واقع الممارسة النقدية في الجزائر، وهنا نتساءل: هل ثمة نقد روائي يواكب الحركة الإبداعية؟ وإن كان فما هي الأسس والمواقف والرؤى التي عمل على ضوئها هذا النقد ؟ وماهي خصوصياته؟.. وحتى وإن كنا نوافق على حداثة ميلاد الرواية الجزائرية ،الفنية المكتوبة باللغة العربية ،مقارنة بالرواية العربية في المشرق، فهل توقفت الدراسات النقدية عند روايات الطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة رغم قيمة الروايات الجمالية والفكرية ،لماذا لم يساير النقاد الجزائريين هذا الزخم السردي عبر مراحل تطوره في تحقيق التفرد بالعدول عن النموذج المشرقي؟ لماذا لم يتمكن البحث الأكاديمي من الوصول إلى ممارسة نقدية واعية ومتوازنة، تستمد حضورها من مكونات الأمة الثقافية والحضارية والفكرية... أسئلة كثيرة نحاول الإجابة عنها في قراءات لنماذج نقدية لروايات جزائرية معاصرة.

Abstract

Talking about criticism in the Algerian novel raises its real problematic practice in Algeria . In this case, we will ask if the critic copes with the creative movement. If so, what are the principles, attitudes and visions that the following criticism worked on.

What are its characteristics? Even if we agree that the Algerian novel written in Arabic is recent. Can we say that

the critical studies stopped at the novel of Tahar Ouettar and Abdelhamid Benhedouga? Why the Algerian critics didn't follow the evolution of the novel in both quantitative and qualitative point of view and in an independent way from the oriental criticism? Why they didn't achieve to build an Algerian theory induced by our cultural and intellectual particularities? These are the issues we want to study in this paper.

Résumé

Parler de critique par rapport au roman algérien nous amène à questionner le champ de la pratique réelle de la critique littéraire dans notre pays. Es-ce qu'elle suit l'évolution de l'écriture romanesque ou bien s'est-elle arrêtée aux romans des deux précurseurs Tahar Ouettar et Abdelhamid Benhedouga ? Pourquoi n'a-t-on pas réussi à construire une théorie de la critique indépendante de celle en vigueur au Moyen-Orient ? Et pourquoi n'a-t-on pas réussi à suivre l'évolution quantitative et qualitative de l'écriture romanesque en Algérie ? Telles sont les questions auxquelles nous voudrions répondre dans cette analyse.

يُجمِع مختلف الدارسين من أمثال عبد الله الركيبي ، مخلوف عامر، واسيني الأعرج على أن رواية **عبد الحميد بن هدوقة** « **ريح الجنوب**» هي أول عمل روائي صدر بالجزائر 1971 م[1] ،حيث توفرت له مقومات الجنس الروائي في ظل الفراغ الذي ساد الساحة الأدبية الجزائرية .وإن كانت هذه البداية الفعلية للخطاب الروائي الجزائري لا تثير أي جدالا, أو اختلافا بصددها ،فإن وجهات نظر أخرى تفرض وجود بدايات ممكنة لهذه البداية الفعلية ، ما يجعلنا نعترف أن التاريخ الدقيق والمضبوط لنشأة الرواية الجزائرية صعب جداً «ويصعب الحديث عن التأريخ الحقيقي للرواية الجزائرية» [2].فالعديد من الدارسين يؤرخ لميلاد الرواية الجزائرية العربية بالرواية المكتوبة باللسان الفرنسي التي تعتبر الأسبق تاريخيا منها رغم اشتراك كليهما في الهوية الثقافية والانتماءات الدينية و الوطنية ، إذ كان الكتاب بالفرنسية سباقين إلى إنتاج نصوص روائية بلغت درجة عالية من النضج [3]،كما أنهم أجمعوا على وجود إرهاصات جنينية. عبدّت الطريق أمام الرواية الجزائرية المكتوبة باللسان العربي ،و احتضنت هذا الجنس التعبيري إلاّ أن ظهر للوجود بشكل

1 ـ عبد الله الركيبي تطور النثر الجزائري الحديث، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ،1967م ص 09 .

2 . براهيم عبد النور، الرواية سبقت النقد ،الحوار للطيفة حوار في جريدة المساء ، http//www.el-masaa.com/ar/pdf/2014

3 ـ مخلوف عامر ، الواقع والمشهد الأدبي ،المكتبة الوطنية الجزائرية –الجزائر ،2011م، ص 114.

فنـي مكتمـل، وهـذا مـا ظهـر جليـا مـع **رضـا أحمـد حوحـو** في روايتـه «**غـادة أم القـرى** « أو قصتـه المطولـة كـما يـراه البعـض، و قـد عدّهـا واسـيني الأعـرج أول عمـل روائي مكتـوب بالعربيـة في الجزائـر، و قـال عنهـا «أنهـا ظهـرت كتعبـير عـن تيـار الوعـي الجماهـيري بالرغـم مـن آفاقهـا المحـدودة»[4] و التـي وسـمت بالضعـف الفنـي وافتقادهـا للـشروط الفنيـة التـي يقضيهـا الجنـس الـروائي ،إلا أنهـا «شـكلت انفتاحـاً جديـداً بالنسـبة للروايـة الجزائريـة المكتوبـة بالعربيـة» [5] . و تلتهـا محـاولات أخـرى تمثلـت في رواة الطالـب المنكـوب لعبـد الحميـد الشـافعي»1951م» والحريـق لنـور الديـن بوجـدرة «1957م» وصـوت الغـرام لمحمـد منيـع»1967م» [6].

إن هـذه المحـاولات الجنينيـة كانـت اللبنـات الأسـاس الـذي شُـيّدت عـلى صرحهـا معـالم الروايـة الجزائريـة باللسـان العـربي، إلى أن جـاء المخـاض الفعـلي عـلى يـد **بـن هدوقـة** بروايتـه **ريـح الجنـوب** ذلـك « الإنجـاز الفنـي الهـام الـذي أضـاف إلى الروايـة العربيـة في الجزائـر لبنـة متينـة في إطـار خلـق و ترسـيخ القيـم الثوريـة الجديـدة و تدمـير المـورث السـياسي «[7].وأيّـا كانـت الآراء حـول الإرهاصـات الجنينيـة المشـكلة للخطـاب الـروائي الجزائـري فإنـه مـن المؤكـد أن «ريـح الجنـوب» تنتـزع بجـدارة شرعيـة البـدء للروايـة الجزائريـة .

4 ـ صالح مفقودة ،أبحاث في الرواية العربية ، دار الهدى ،عين ميلة– الجزائر ،ط1 ،2008 ،ص22

5 . عبد القادر شرشار، محمد داود الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية، 2003م http://insaniyat.revues.org/7083

6 ـ واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1986م، ص102/103.

7 . المرجع نفسه، ص 65.

ومـن المفارقـات العجيبـة التـي شـهدتها حيثيـات بدايـة تشـكل الروايـة الجزائريـة العربيـة معاينتهـا توقيـع شـهادة ميـلاد للمـرة الثانيـة مـع الـروائي «**الطاهــر وطــار**» ،الـذي يعـدّه المؤرخـون أب الروايـة الجزائريـة المكتوبـة باللغـة العربيـة، و مشـكل ملاحمهـا الفنيـة البـارزة فهـو عـلى حـد تعبـيره يجسـد اسـتقلال الجزائـر ثقافيـا عـن فرنسـا بقوله :»أنـا اعتـبر نفـسي ثالـث ثلاثـة وقعـوا عـلى وثيقـة اسـتقلال الجزائـر عـن فرنسـا بكتابـاتي باللغـة العربيـة فالأمـير عبـد القـادر الجزائـري حـرر الـذات الجزائريـة مـن آثـار المسـتعمر الفرنـسي وبومديـن أسـس الدولـة الجزائريـة الحديثـة ، و أنـا وقعـت عـلى وثيقـة الاسـتقلال الثقـافي عـن فرنسـا «[8].

فطاهـر وطـار وقـع الاسـتقلال الثقـافي و الفنـي بإخراجـه الروايـة مـن «التابـوت اللغـوي والمضامـين المسـتهلكة «[9]،بروايـة **الـلاز** التـي ظهـرت للوجـود عـام 1972 م و يشـهد لهـا بالتفـوق الفنـي و الإبداعـي عـن سـابقتها ريـح الجنـوب، و كانـت بامتيـاز و إجـماع علامـة فارقـة «مضافـة إلى مـا أنجـزه الروائيـان العربيـان الراحـلان الطيـب صالـح في موسـم الهجـرة للشـمال و إميـل حبيبـي في روايتـه «سـعيد أبـو النحـس المتشـائل» [10] وبالرغـم مـن أسـبقية بـن هدوقـة إلا أن طاهـر وطـار انتـزع منـه أحقيـة و شرعيـة التأسـيس الحقيقـي والفعـلي للروايـة الجزائريـة العربيـة، لمثابرتـه عليهـا بشـكل منتظـم و دؤوب وإنتاجـه الفنـي شـاهد لـه بذلـك، فـلا ضـير أن يعتـبره البعـض غوغـول الروايـة

8 ـ قواسمة وفاء ، بنية الفضاء الروائي «رواية الدروب الوعرة لمولود فرعون»، مذكرة ليسانس ، 2012/2011،ص 17.

9 ـ واسيني الأعرج ، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ،ص90.

10 ـ أحمد على هلال، مؤسس الرواية العربية في الجزائر الطاهر وطار، مجلة جهينة ،ع 64، 2000-09-01م.

الجزائريــة « مــن الناحيتــين التاريخيــة و الفنيــة و كذلــك مــن ناحيــة الكــم ، و قــد عمــل وطــار منــذ انطلاقتــه عــلى تطويــر تجربتــه بشــكل لافــت «[11].و بذلــك فتــح الأبــواب حامــلا المشــعل و مدعــما بنــاء الــصرح الــروائي ليتحقــق التراكــم بعــده بظهــور أقــلام روائيــة واصلــت مســيرة التشــييد أمثــال، واســيني الأعــرج ،مــرزاق بقطــاش أمــين الــزاوي ، أحــلام مســتغانمي ،إبراهيــم ســعدي ، الحبيــب الســائح ،محمــد عرعــار وغيرهــم ممــن عرفــوا بأدبــاء الثمانينــات ، وتواصــل الإنتــاج و التراكــم مــع أدبــاء التســعينات نذكــر منهــم بشــير مفتــي ،ياســيمنة صالــح ،أحميــدة العيــاشي ، ياســيمنة خــضرة ،بوعــلام صنصــال ،الطاهــر جــاووت .

في حديثنــا عــن حيثيــات بدايــة الروايــة العربيــة الجزائريــة الفنيــة، يظهــر لنــا جليــا أنّ ولادتهــا كانــت مؤجلــة إلى غايــة 1971 كــما ســبق وأن أشرنــا الأمــر الــذي يســتدعي خطــوات حفريــة في الأســباب التــي حجبــت ظهورهــا، بالفعــل ســؤال ملــح يتخبــط في جــدران العقــل عــن أســباب التأخــر بالمقارنــة مــع بنظريتهــما المكتوبــة بالفرنســية.

أمّــا البحــث في طبيعــة الممارســة النقديــة في الروايــة الجزائريــة فإنــه يقودنــا حتــما إلى الكشــف عــن المعرفــة النقديــة وانزياحهــا بــين البحــث عــن أصــل لــكل تطــور شــهدته الروايــة الجزائريــة الحديثــة ، وهــو ســلوك وضــع الخطــاب النقــدي الجزائــري المعــاصر تحــت وطــأة محــاولات الإنعــاش المســتمرة للأســئلة النقديــة القديمــة ومــن خــلال ربــط الاجتهــادات النقديــة العربيــة التراثيــة عــلى نحــو تعســفي بنظريات حديثــة، لهــا أســئلتها المختلفــة، وســياقاتها الكليــة الفلســفية والاجتماعيــة المتباينــة أو بــين، نقــاد انتســبوا للحداثــة فآثــروا تطبيــق مــا نقلــوه مــن

11 . حسين الطلبي، الرواية الجزائرية باللغة العربية الطاهر وطار مؤسسا ،مجلة الرافد ع 173، يناير 2012.

نظريات على إبداعنا المحلي حتى وإن ظل هذا المنقول مشوها، إما بسبب ضعف لغة الناقل، أو بسبب غياب المعرفة بالأسس التي قامت عليها هذه النظريات في بيئاتها النظرية الغربية المختلفة عن بيئتنا الجزائرية..و خلفياتنا الإيديولوجية ، فنتج عنه غياب نقد مؤسساتي في غياب التخصص، وهو ما يظهر في التباين بين الممارسات النقدية في الجزائر الذي أدي إلى تباين في المستوى المعرفي و الثقافي المصاحب لكل عمل روائي وهو أمر واضح في غياب الكتب النقدية الجزائرية المتخصصة، فحصل ما نسميه النقد الانطباعي أو النقد الفايسبوكي عبر فضاء الانترنت .

بدأت الاتجاهات الجديدة لنقد القصة والرواية بالتكون في مطلع السبعينيات، وحملت معها بذور الصراع مع اعتمال النقد بهويته وتعرفه إلى مقوماته التراثية. فنشط النقد، وتوسعت فعاليته في حياة الابداعية العريضة بين الكتاب والقراء. وامتد إلى الساحات الأكاديمية والعلمية والاتصالية، وانتشرت العديد من الرسائل الجامعية ، وتضاعفت أعداد المذكرات للطلبة المقبلين على التخرج في التدرج ، وحظيت القصة والرواية ونقدهما بعناية يعضدها تقدم هذين الجنسين الأدبيين على بقية الأجناس الأدبية الأخرى، وتبوأت الرواية المكانة الأولى بوصفها ديوان العصر ، والأكثر تعبيراً عن الذات القومية والمصير الإنساني، واشتغل النقاد بدراسة نشأة القصة والرواية وتاريخهما وتطورهما ، واهتموا بالجانب الفني أكثر مما كان في المرحلة السابقة بقليل أو كثير حسب الباحث أو الناقد، فظهرت عشرات الكتب مثل: «تطور النثر الجزائري الحديث» لعبد الله ركيبي ، الذي استعان في دراسته بمنهج النقد التحليلي وبالتاريخ إلى حد ما، حسب تعبيره، وعرض للأشكال النثرية التقليدية، وهي:

الخطـب والرسـائل وأدب الرحـلات والمقامـات والمناظـرات والقصـة الشـعبية، وللأشـكال النثريـة الجديـدة، وهـي: المقـال الأدبي والقصـة القصـيرة والروايـة العربيـة والمسرحيـة والنقـد الأدبي. ويحفـل هـذا الكتـاب بتعليـلات الناقـد ركيبـي لعوامـل نشـأة هـذه الفنـون وتطورهـا مـن وثائقهـا ومخطوطاتهـا ومتونهـا، وعـن ظهـور الروايـة، ويـرى أنهـا ظهـرت متأخـرة في السـبعينيات، بالرغـم مـن أن هنـاك بـذوراً بـذرت «بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة التـي يمكـن أن نلحـظ فيهـا بدايـات سـاذجة للروايـة العربيـة الجزائريـة سـواء في موضوعاتهـا أو في أسـلوبها وبنائهـا الفنـي، فهنـاك قصـة مطولـة بعـض الـشيء كتبهـا أحمـد رضـا حوحـو واسـمها «غـادة أم القـرى»، وتعالـج وضـع المـرأة، ولكـن في البيئة الحجازيـة، ثـم هنـاك قصـة كتبهـا عبـد المجيـد الشـافعي، وأطلـق عليهـا عنـوان «الطالـب المنكـوب»، وهـي قصـة مطولـة أيضـاً، رومانسـية في أسـلوبها وموضوعهـا فهـي تتحـدث عـن طالـب جزائـري عـاش في تونـس في أواخـر الأربعينيـات، أحـب فتـاة تونسـية، وسـيطر عليـه حبهـا حتـى إنـه كان يغمـى عليـه مـن شـدة الحـب، ومضمونهـا سـاذج مثـل طريقـة التعبـير فيهـا[12]، و يـأتي مـشروع الأسـتاذ الدكتـور عبـد المالـك مرتـاض في مجـال النقـد عمومـا نمـوذج يمكـن تأطـيره والاسـتفادة منـه في الكتابـة النقديـة، إنـه مـشروع أصيـل يعلـن عـن نفسـه مـن خـلال منجزاتـه المتراكمـة والممتـدة عـلى مـدى ثلاثـة عقـود مـن الزمـن، ويقنـع القـراء والمتتبعـين والمهتمـين والمختصـين عـلى السـواء بمـا لقـي صاحبـه فيـه مـن عنـت وجهـد ومثابـرة قـل نظيرهـا، وتصحيحـات وتطويـرات تقـدم أبلـغ الأدلـة وأكـثر الحجـج مصداقيـة عـلى تميـز هـذا المـشروع, وخصوبتـه وغنـاه, و فـرادة صاحبـه ومشروعيتـه العلميـة بـين الباحثـين المعاصريـن،

12 .. عبد الله ركيبي،: تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1978 ص 200-199.

لما يتميز به طرحه- وبخاصة في مؤلفاته الأخيرة التي اغتدت معينا يستعين بع المبدع لإثراء موسوعته الفكرية والأدبية بتلك النزعة النقدية التفاعلية التي تزاوج بين مكتسبات الإرث المعرفي العربي القديم ومعطيات المعرفة الغربية ذات التوجه الحداثي- من تماسك فكري وفعالية علمية ودقة منهجية ووجاهة معرفية، إن مسارا نقديا بهذا الغنى والسعة والثراء، وبهذا الامتداد الزمني الشاسع, وبهذا التعدد المعرفي الثري، الجامع بين أصالة التراث وعمقه وحداثة المعرفة الوافدة والمتطورة باستمرار- المستثمر لبعض ما تركه العلماء، والمسترفد لبعض منجزات الحداثة الغربية، والمكيف لها مع الذوق العربي الأصيل، والطرح العربي الخالص، ظاهر من خلال حجم المراجع المتعددة المتعلقة بالتراث وبالحداثة، التي استند إليها عبد المالك مرتاض، في كتبه : من «فنون النثر الأدبي في الجزائر» إلى «القصة الجزائرية المعاصرة « إلى «نظريات النقد» ....

لقد أوضح مرتاض العلاقة في نسيج الإبداع بين اللغة والمجتمع، فتناول هذه القضية بشيء من التفصيل عن طريق إيضاح علاقة الكتابة بالنص كبداية، ورأى أن الكتابة أصل والنص فرع، وهذا أمر حتمي لأن النص نتيجة لفعل الكتابة، كما أنه عرج على ماهية النص فعالجها من الجانب الاشتقاقي ثم الاصطلاحي معتبرا النص متمثل في « أي إبداع يرتقي إلى مستوى يخول لنا أن نحلله أو ندرسه أو نقرأه على سبيل التمتع والتلذذ والتنعم فهو من الوجهة المبدئية نص أدبي ...»[13].ورأى أن اللغة و الأسلوب يبدوان شيئين مختلفين، ولكنهما قد يكونان شيئا واحدا، بحيث «لا ينبغي

13 . عبد المالك مرتاض: (الكتابة من موقع العدم) ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ص 226

فصل أحدهما عن الأخر، ولا التمييز بينهما»[14]. كما أن مسألة العلاقة بين أسلوب الكاتب والمجتمع، هي علاقة جدلية، فكما أن الكاتب يأخذ من المجتمع، فهو يثري مجتمعه بإبداعه كذلك. ولذا رأى مرتاض أن الكتابة بحكم ازدواجيتها (اللغة، الأسلوب)، فهي مرتبطة بالمجتمع.

وهذا يتوافق مع ما كتبه في كتابه (في نظرية النقد) حيث قال:» فإنما الكتابة تجسيد لحياة البشرية بما فيها من آلام وآمال...»[15].

لقد عرف الإنتاج الروائي الجزائري خلال العقدين الأخيرين غزارة معينة، إذ أقبل العديد من المؤلفين على كتابة هذا الجنس الأدبي. و كان الجيل، الذي عايش هذه المرحلة، شاهدا على تسلسل وقائع وأحداث تاريخية شكلت الخلفية التي نسجت من صميمها حبكة القصص. كما صدرت عن موجة العنف التي ظهرت في التسعينيات مجموعة من النصوص شغلت الحقل الأدبي الجزائري. و يحاول أصحابها نقل ما عاينوه من ممارسات مرعبة وفظائع تعجز اللسان عن التعبير. وصفت هذه الكتابة في حينها ب"الاستعجالية" لتترك مكانها مؤخرا لنصوص قد تنعت ب"ما بعد -الاستعجالية". أما في بداية القرن الواحد و العشرين فقد برزت في الساحة نصوصا أدبية تنشغل بالأحداث و بوقائع المرجعية التاريخية وتتكيف معها، باعتمادها على أشكال تجنيسية و أساليب و أنساق سردية و فنون كتابة ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياق الاجتماعي و التاريخي الذي يتحكم فيها و يقوم على بلورتها و إعطاءها معنى محددا. يثير

14- عبد المالك مرتاض: (الكتابة من موقع العدم) ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر ص91

15- عبد المالك مرتاض (في نظرية النقد) ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ،2002، ص12

البحث في قضايا الكتابة الروائية الإمكانيات التي تسهم في تلفظها، إشكالية الكتابة المتأصلة دائما في عمق المجتمع الجزائري و في تاريخه. و تجد هذه النصوص التخييلية صلابتها الإبداعية في اعتماد تقنيات روائية تستلهم مضامينها و أشكالها من السياق المحلي و من التراث الأدبي العالمي. و في هذا المنحى، توظف الصياغة الأدبية للأحداث و الوقائع، قوالب شكلية كما تستعين بنظريات اللغة التي تستمد مهارتها من التناص الذي يجعل الرواية مفتوحة على حقول أدبية أخرى. فيطبع هذا الحوار القائم بين النصوص وهذا البحث الروائي، ما يسميه رشيد مختاري "النفس الجديد للرواية الجزائرية."

وشهدت المكتبات الجزائرية أيضا وصفحات النت كما هائلا للإبداع الروائي الجزائري فلا نكاد نستيقظ كل يوم إلا ونتابع خاصة في مواقع التواصل الاجتماعي عن عشرات الروايات ، إذ أقبل العديد من الشباب على كتابة هذا الجنس الأدبي، وفي التسعينات كان الجيل، الذي عايش مرحلة الأزمة ، شاهدا على تسلسل وقائع وأحداث تاريخية شكلت الخلفية التي نسجت من صميمها مجموعة من النصوص القصصية شغلت الحقل الأدبي الجزائري. حاول أصحابها نقل ما عاينوه من ممارسات مرعبة وفظائع يعجز اللسان عن وصفها. وقد وصفت هذه الكتابات في حينها ب"الاستعجالية" لتترك مكانها مؤخرا لنصوص قد تنعت ب"ما بعد -الاستعجالية". أما في بداية القرن الواحد و العشرين فقد برزت في الساحة نصوصا إبداعية اتسمت بالهدوء بعد العاصفة اتخذت من الوقائع المرجعية التاريخية مصدرا لها ، فاعتمدت على أشكال تجنيسية و أساليب و أنساق سردية و فنون كتابة ارتبطت ارتباطا وثيقا بالتطور السريع الذي شهده العالم المتحضر من وسائل الاتصال ، فقام المبدعون

عـلى بلورتهـا و إعطاءهـا معنـى جديـدا. يثـير البحـث في قضايا القـراءة و الكتابـة السرديـة و إمكانيـات الناقـد الـذي لم يعـد ذلـك القـارئ المتفـرج بـل صـار بـدوره يبحـث عـن مكانـه في تفسـير إشـكالية الكتابـة المتأصلـة دائمـا في عمـق المجتمـع الجزائـري و في وصـف المشـاكل اليوميـة التـي يعيشـها الفـرد .و انطلاقـا مـما سـبق، يمكـن طـرح الأسـئلة التاليـة: ما هي الفـترات التاريخيـة التـي اسـترعت اهتـمام النقـاد المعاصريـن؟ مـا هـو نصيـب الموضوعيـة في الحديـث عـن نقـد جزائـري ؟ و مـا هـي المناهج و المعايـير النقديـة التـي طبقهـا النقـاد لتحليـل هـذه النصـوص الإبداعيـة؟ و مـا هـي الـدلالات التـي تبتغيهـا و القـراءات التـي تسـتهدفها؟ أيـة وظيفـة يمكـن أن تمنـح للقـارئ المتفاعـل في تشريـح النـص الإبداعـي؟ هـل بإمكاننـا القـول قـراءة النصـوص تخضـع لمعايـير شـهرة أصحابهـا وتملكهـم بفعـل غيـاب نقـد جـريء لأعمالهـم وأنـه يخضـع لمعايـير إيديولوجيـة ترفـع مـن تشـاء وتضـع مـن تشـاء أو أن عـزوف القـارئ المتخصـص أسـهم في تخبـط الروايـة الجزائريـة المعـاصرة ؟

وماهي اتجاهات النقد في الرواية الجزائرية ؟

أولا :ظهـور الواقعيـة في الروايـة الجزائريـة:

لقـد سـاعدت ظـروف الجزائـر بعـد الحـرب العالميـة الأولى عـلى ظهـور المذهـب الواقعـي في الروايـة الجزائريـة [16] ، التـي لم تنشـأ مـن فـراغ إنمـا هـي ذات تقاليـد فنيـة و فكريـة ،كـما أنهـا ذات صلـة تأثريـة بظهـور و شـيوع مصطلـح الواقعيـة في أوربـا الـذي أعلنـه بلـزاكHonorè Balzac في مجموعتـه الضخمـة ' الكوميديـا البشريـة

16 . ينظر دراسات في الأدب الجزائري الحديث أبو القاسم سعد الله ، ، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ،1985،ص 56

la comèdie humaine.[17] ›،وأهم ما يميز الرواية الجزائرية ارتباطها الوثيق بالواقع فهو ، الموضوع الأساسي إن لم يكن الأوحد ، وهو واقع المجتمع وواقع الإنسانية كلها «و يتجسد في حياة الإنسان في بيئة معينة و في وضعه الاجتماعي بما يطبعه من بؤس أو رخاء ، و علائقه بالإنسان و الأرض ، وموقفه من الأنظمة والقوانين الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ،وأخيرا في مشاعره و أحاسيسه و عواطفه ، إنه واقع واسع يشمل مظاهر الوجود الإنساني في مجتمع معين» .[18]

و واقع الجزائر في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى كانت تسوده الكثير من المتناقضات و العزلة والحرمان ، و قد كثر فيه من دواعي الحرية والوطنية والديمقراطية والرخاء في نفس الوقت الذي كان فيه الشعب يعاني من الشقاء المزمن و القيود وقد سادت الواقعية لما فيها من وصف مادي للحياة و تعبير صريح لما فيها ، لا لما تحمله من تشاؤم ونظرات سوداء ولما تزرعه من بذور الطبقية والحقد [19] -كما يراها البعض.

وأهم جانب يلتفت إليه الأديب الواقعي هو ‹الجانب الاجتماعي› لذا فهو يولي عناية خاصة بالصراع الطبقي ، كما يولي عناية كبيرة بتحديد الأزمات الاجتماعية و بيان أسبابها وأثارها ، فيكون بذلك شاهدا على الواقع الذي يعيش فيه [20] ، فينقلنا إليه دون تكلف أو افتعال وهذا ظاهر في كتابات الأدباء الجزائريين الواقعيين من خلال القضايا التي تناولوها ، فمثلا في رواية ‹غادة

17. ينظر في الأدب الجزائري الحديث ،عمرين قينة ، ، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون ، الجزائر،1995، ص 196

18 . محمد مصايف ، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ط 2، 1984 ، ص 290

19 . ينظر أبو القاسم سعد الله ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص 56/57

20 . ينظر محمد مصايف ، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1985 ،ص 291

أم القـرى، لأحمـد رضـا حوحـو 1947 يعالـج الكاتـب مشـكلة الحجـاب التـي شـغلت الأذهـان والأقـلام زمنـا طويـلا [21] وحتـى يومنـا هـذا ، و في روايـات السـبعينات طـرح موضـوع الصـدام الحضـاري، فـكان مـرزاق بقطـاش مـن أكـثر الروائيـين وعيـا لواقـع الصـدام الحضـاري في روايتـه ‹طيـور في الظهـيرة› عندمـا جعـل التلاميـذ ينقطعـون عـن حصـص اللغـة الفرنسـية و يكتفـون بحضـور حصـص اللغـة العربيـة[22] .

الإبـداع الأدبي هـو خلاصـة تجربـة كبـيرة أفـرزت شـكلاً فنيـاً . وكلـما وقـع تغيـير في الواقـع ظهـرت إرهاصاتـه في الأدب ، في ربط العمـل الروائي بالواقـع الاجتماعـي والحضـاري، وتحقيـق هويتـه الفنيـة والفكريـة المميـزة. وكل روايـة هـي نـوع أدبي في ذاتهـا ، وأن جوهرهـا يكمـن في فرديتهـا وخصوصيتهـا. فهـي خلاصـة ، ومزيـج مـن كل الأنـواع السرديـة التـي سـادت قبلهـا[23] .

مـن خـلال ثلاثيـة محمـد ديـب يتضـح لنـا شـيئا مـن المناهـج الأدبية الحديثـة ، وأبـرزُ اتجـاه نبـع مـن أعـماق الأديـب ، هـو الاتجـاه الواقعـي الـذي أخـذ حيـز الروايـة فسـاير الواقـع الجزائـري المريـر، ويعـرف ركيبـي الواقعيـة بمفهومهـا الحديـث « أنهـا الواقعيـة الفنيـة التـي تعنـى بالإنسـان أولا وأخـيرا بـلا طنطنـة ولا صراخ ولا افتعـال ، بـل ..الواقعيـة التـي تنقـل الواقـع نقـلا آليـا ثـم تعلـو عنـه بالمعالجـة الفنيـة بالهمـس والإيحـاء ، باللفتـة المعـبرة والحـوار الطبيعـي الجـذاب «[24] فـكان ارتبـاط

21 . ينظر أبو القاسم سعد الله ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ،ص 58

22. ينظر جاب الله أحمد ، الحداثوية و أثرها في الرواية العربية ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة محمد خيضر، بسكرة ، دار الهدى للطباعة والنشر و التوزيع عين مليلة ، العدد الثاني ، 2002، ص 18

23 – إبراهيم عباس :تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية: و.و.ن،إ.. 2002 الجزائر ص:15

24 . إبراهيم عباس :تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية ص: 5/ 6

الـروائي بواقعـه صـدى للتغـيرات و التصـورات التـي طـرأت عـلى مفهـوم الروايـة ، فاعتمـد في موضوعـه وأسـلوبه ، المذهـب الواقعـي لمعالجـة مـا يشـاهده ، ومـا يعـرض بـه في حياته ، فلم يلجـأ إلى الخيال كثـيراً ، وهو ما أشـارت إليـه نجـاة خـدة في كـون «الـسرد يظهـر كعمليـة اسـترجاع للزمن الضائـع مـن أجـل بحـث عـن عـن زمـن آتي حيـث تكـون التمفصـلات الزمنيـة واضحـة . والمعـالم الكرونولوجيـة غامضـة ومشوشـة»[25] . فالواقـع الحـي هـو الـذي كتـب بالـدم والبـارود والتضحيـات .. إن علاقـة النـص الـروائي بالواقـع تسـتند، غالبـا إلى مبـدأ «التحويـل و التعديـل» ذلـك أن الواقـع ليـس شـيئاً جاهـزاً ماثـلا هنـاك بـل هـو شيء يبينـه كل مـن المؤرخ و الكاتـب الـروائي.[26] و الروايـة بحسـب توصيـف آلان روب غرييه هـي «بحـث عـن واقـع لـن يوجـد إلا بعـد الانتهـاء مـن الكتابـة «.[27]

ومـن الملاحـظ، أن الكتابـة النقديـة عـن الواقـع والواقعيـة هـي السـائدة في السـبعينيات والثمانينـات فـبرزت فكـرة الأيديولوجيـة عـن الواقعيـة ورؤيـة الواقـع، فهـو لم يعـن بإشـكاليات النظريـة أو المصطلـح أو المنهـج، ودخـل في موضـوع السياسـة العامـة عـلى عجـل، وأطلـق آراء وأحكامـاً تفتقـر إلى التعليـل الفكـري أو كـما نلاحـظ ميـل الكثـير مـن الروائيـين الجزائريـين إلى الاتجـاه الإيديولوجـي الماركـسي، فهـذا الطاهـر وطـار في روايتـه ‹ الـلاز› حـاول أن يصبـغ الثـورة التحريريـة بصبغـة إيديولوجيـة ، وكذلـك حسـان جيـلاني في روايتـه ‹ لقـاء في الريـف› 1980 فقـد كان متعصبـا للثـورة الزراعيـة ،

25 . نجاة خدة :،ترجمة عبد العزيز بوباكير ،مجلة الرواية العدد الأول ، جانفي 1990م، مطبعة دحلب حسين داي الجزائر،ص39

26 إبراهيم فتحي– الخطاب الروائي و الخطاب النقدي في مصر– الهيئة المصرية العامة للكتاب– العام: –2004ص:220.

27– رشيد بنحدو– الرواية و الواقع– الدار البيضاء– عيون المقاولات– ص: –1988ص: 31.

ومثلـه عبـد الحميـد بـن هدوقـة في روايـة ‹ريـح الجنـوب 1970› .[28]
و يـرى عبـد اللـه الركيبـي أن الروايـة الواقعيـة في الجزائـر لم تنجح إلا بعد جمعهـا بـين الواقـع الاجتماعـي وبـين التجربة الخاصـة للأديـب ، فهو يلح عـلى التجربـة الذاتيـة ، ولا يعنـي بهـا الذاتيـة التـي عرفهـا الأدب العـربي في إحـدى مراحلـه إنمـا هـي التجربـة التـي تنبـع مـن معايشـة النـاس ومشـاطرتهم مشـاكلهم اليوميـة ، فهـي ليسـت انفصـالا عـن واقـع النـاس بـل معايشـة لـه [29] ، و هـو يقـول في مقدمـة كتبهـا للمجموعـة القصصيـة ‹بحـيرة الزيتـون› لأبي العيـد دودو : «و القصـة العربيـة الجزائريـة و هـي حديثـة العهـد وجـدت في الثـورة منطلقـا لهـا وطاقـة خلاقـة أعطـت القصاصـين الجزائريـين مـادة خصبـة جديـدة ، كـما وفـرت لهـم فرصـة التجريـب في الأسـلوب أو في المضمـون ... و أبـو العيـد دودو واحـد مـن طليعـة أدباءنـا الشـبان الملتزمـين بقيـم تمثـل شـعبنا المناضـل ، وأحـد الذيـن عاشـوا الثـورة بوجدانهـم و انفعالاتهـم و عـبروا عنهـا في أدبهم».[30]

وعبـد اللـه الركيبـي يـؤرخ لظهـور الاتجـاه الواقعـي بانـدلاع الثـورة الجزائريـة يقـول : «وبهـذا دخلـت قصتنـا العربيـة مرحلـة جديـدة متخطيـة دروب الوعـظ والخطابـة والذاتيـة المنغلقـة عـلى نفسـها، وأعنـي بهـا مرحلـة الواقعيـة بمفهومهـا الحديـث ... الواقعيـة التـي تعنـى بالإنسـان أولا وأخـيرا بـلا طنطنـة و لا صراخ و انفعـال ... الواقعيـة التـي لا تنقـل نقـلا آليـا فوتوغرافيـا ، بـل تأخـذ منـه ثـم تعلـو عنـه بالمعالجـة الفنيـة ، بالهمـس بالإيحـاء باللفتـة المعـبرة ، وبالحـوار الطبيعـي الجـذاب «.[31]إذن هـو يـرى أن هـذه الفـترة هـي التـي مكنـت القصـة الجزائريـة

28 . ينظر المرجع نفسه ، ص18/19
29 . ينظر أبو القاسم سعد الله ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص 298
30 . أبو العيد دودو ، بحيرة الزيتون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 2، 1992 ، ص 5/6
31 . . أبو العيد دودو ، بحيرة الزيتون،، ص 5/6

مـن الدخـول في مرحلـة الواقعيـة بمفهومهـا الحديـث ، والتـي تجمـع بـين الواقـع و بـين شـخصية الأديـب ، أي بـين موضوعيـة القضيـة وذاتيـة التجربـة ، مـع المحافظـة عـلى الـشروط الفنيـة الضروريـة للعمـل الأدبي

إنــه مــن الصعــب عــلى الــروائي الواقعــي أن يقــوم برســالته الاجتماعيـة الإنسـانية أو الوطنيـة كـما يريـد إذا لم يؤمـن مسـبقا بقضايـا المجتمـع الـذي يعيـش فيـه ، ويقتنـع بصـواب هـذه القضايـا اقتناعـا كليـا .وكل مـن الاقتنـاع والإيمـان يشـكل عنـصرا أساسـيا مـن عنـصر الاتـزان والحريـة ، وإذا كان الإيمـان بقضايـا المجتمـع ضروريـا للمبـدع لأنــه الســبيل الوحيــد للاندمــاج في المجتمــع ،فــإن الاقتنــاع بصــواب القضيـة المعالجـة لا يقـل في عـن ضرورة لأنـه مرحلـة هامـة إلى الصـدق التاريخـي .ومـن المعـروف أنـه بـدون الاندمـاج في المجتمـع والصـدق في الإبـداع لا يمكـن للـروائي أن ينجـح في رسـالته ، وهنـاك فـرق بـين المبـدع الـذي لا يلتفـت إلى قضايـا المجتمـع إطلاقـا وبـين أو تمـر عليـه بصـورة عفويـة دون غايـة محـددة ، وبـين الـروائي الحديـث الواقعـي الـذي صـار إيمانـه بهـذه القضايـا جـزءا مـن رسـالته ، أو ملهـما لنشـاطه الـذي يهـدف إلى التغيـير والثـورة يقـول :محمـد مصايـف ويلاحـظ عبـد اللــه الركيبــي في المقدمــة التــي كتبهــا لمجموعــة بحــيرة الزيتــون لأبي العيـد دودو أن هـذه التجربـة وجـدت في الثـورة الجزائريـة «منطلقـا لهـا وطاقـة خلاقـة أعطـت القصاصـين مـادة خصبـة جديـدة « [32]

لقــد هيمنــت الأيديولوجيــا الاشــتراكية عــلى الحيــاة الجزائريــة عامــة – عــلى غــرار البــلاد العربيــة – سياســة واقتصــادا و ثقافــة ، وأفـرزت الثـورات الثـلاث (الزراعيـة والصناعيـة والثقافيـة) ، وعـلى

32 . مجموعة بحيرة الزيتون لأبي العيد دودو ، طبع مطبعة الشعب الجزائري ، 1966، تقديم عبد الله ركيبي، ص 5/6

ضوئها شهدت الجزائر حركات التأميم والتسيير الذاتي للمؤسسات والمخططات التنموية ، في هذا الوقت بدأ الخطاب النقدي الجزائري ينفتح على خطابات أيديولوجية خارجية (لينين وماركس...)و أخرى أدبية نقدية (لوكاتش و غولدمان...) ، وبدأت تتعمق علاقة الأدب بالأيديولوجيا فظهر كم نقدي معتبر يتحرك في هذا الفضاء المنهجي ، على اختلاف الرؤى النقدية [33]فهذا عبد الله الركيبي ينحاز في واقعيته إلى الرؤية التاريخية ، ويؤكد على الاتجاه الإنساني «فليس الواقع الاجتماعي وحده الذي ينبغي أن يهم الأديب الواقعي ، بل ينبغي أن يهمه كذلك الواقع العاطفي و الروحي للإنسان «[34] ، وكأنها محاولة للمزج بين معالم الواقعية و بعض خصائص الرومانسية.[35] أما محمد مصايف فيركز على الواقع الاجتماعي[36] ، وفي دراسة له بعنوان ‹الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية و الالتزام› ، قام بتصنيف الروايات بحسب الملامح العامة لموضوعها فكانت : الرواية الأيديولوجية والرواية الهادفة والرواية الواقعية ورواية التأملات الفلسفية ورواية الشخصية. [37]

غير أن دراسات الواقعية شهدت تراجعاً عن المستوى الفني والفكري الذي وصلت إليه، كما لاحظنا، فظهرت أعمال نقدية تفتقد إلى المنهجية وغلب عليها الإنشاء اللفظي على لغة النقد والانطلاق أحياناً من التماهي بين الروائي وعمله، والفصل بين

33 ينظر يوسف وغليسي ، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2002 ،ص39

34 . محمد مصايف ، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ، ص297

35 . ينظر شايف عكاشة ، نظرية الأدب في النقد الواقعي العربي المعاصر ، ديوان المطبوعات الجامعية ،بن عكنون ،الجزائر، د.ط ، 1994، ص 65

36 . ينظر محمد مصايف ، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ، ص290

37 . ينظر يوسف وغليسي ، النقد الجزائري المعاصر اللانسونية إلى الألسنية ، ص47

المضمون والشكل، و كتاب «الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع: دراسة تحليلية فنية» 1993 لعبد الفتاح عثمان (مصر)، نموذج عمد فيه إلى دراسة نقدية لبعض الروايات على أساس موضوعاتها: «واقع الكفاح الثوري المسلح»، و»واقع الثورة الزراعية»، و»واقع النقد الذاتي»، و»واقع الاغتراب». وتجنب عثمان الموضوعية في درس المتن الروائي الجزائري حين أبعد روايات رشيد بو جدرة «لأن رؤيته للواقع الجزائري مشوشة مضطربة ضبابية»[38].وثمة آراء قبلية تحكمت في نقد عثمان كمحاكمة إلى عقيدة الكاتب أو إلى تحزبه أو انتمائه السياسي، وهي تحكميات جاوزها النقد العربي الحديث منذ زمن، كما في رأيه برواية «الزلزال» للطاهر وطار: «ويذكر أنه لجأ إلى الرمز في استخدام كلمة الزلزال التي تعبر عن الخطر الداهم والعالم السفلي الذي يرمز إلى الطبقة الكادحة المطحونة، والعالم العلوي الذي يرمز إلى الطبقة الإقطاعية التي ينتمي إليها أبو الأرواح. إن تضخم شخصية أبو الأرواح، والإكثار من اللوحات الوصفية، والابتعاد عن ميدان المعركة الحقيقي، وهو الأرض، وبروز أفكار الكاتب في تبني الاتجاه الشيوعي قلل من القيمة الفنية لهذه الرواية، وإن كان هذا لا يعني الغض من تأثيرها وقيمتها المرموقة في تطور الرواية الجزائرية الحديثة»[39].

وينبغي علينا أن نشير إلى أن التحليل الفني لا ينتظم في منهج معين، ولا يخضع لترابط ما من قواعد النقد ومعاييره، فهو يمزج بين داخل النص وخارجه. ومن نقاد الرواية الواقعية الجزائرية الأعرج واسيني ، و هو صاحب

38 . المصدر نفسه ص14.
39 . المصدر نفسه ص147.

أول دراسة منهجية منظمة للرواية الجزائرية في ضوء المنهج الواقعي ، وهو ينظر للرواية على أنها» نتاج الثورة الوطنية وإرهاصاتها « و في مرحلة أخرى ينظر لها بأنها « انعكاس للتحولات الديمقراطية « [40]. وعلى غرار الأعرج واسيني يحاول الناقد محمد ساري أن يفيد من أطروحات لوكاتش وغولدمان وسائر منظري الفكر الواقعي و الأيديولوجي عبر كتابه ‹البحث عن النقد الأدبي الجديد › وهو أول ناقد جزائري قام ببسط نظري شامل لمعالم ‹ البنيوية التكوينية › عند لوسيان غولدمان ، لكنه لم يلتزم بها تطبيقيا ، كما وظف مصطلحات نقدية من منهجه مثل: الرؤية المأساوية ، الفهم ، الشرح ، البطل السلبي ، البطل الإيجابي ، الشخصية النموذجية ... وغيرها [41]،كما يمكن الإفادة مما قدمه إبراهيم روماني في حديثه عن علاقة الأدب بالواقع في مقالة له بعنوان ‹الأدب والواقع› و هو يرى أن كلا من الماركسية و الشكلانية «قد شوه بنية علاقة الأدب بالواقع وذلك لتطرفيهما [42] ،ويرى جل النقاد أن الرواية العربية بصفة عامة والجزائرية بصفة خاصة لم ينطلق فيها أصحابها من روح أمتهم وضمير شعوبهم ، بل انطلقوا من الأفكار و التيارات الواردة من الشرق أو الغرب ، وبذلك فقد ساعدوا الاستعمار في تحقيق ما سعى إليه خلال قرون غابرة فقد أصدر جل الروائيين الجزائريين في السبعينات إنتاجهم الروائي من التيار الماركسي ، وقد تأثر كل من عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار ومرزاق بقطاش , ورشيد بوجدرة بالاتجاهات الواقعية في الروايات العالمية[43] ، غير أن هذا لا ينفي اتكاء الرواية الجزائرية على الواقع المعيش سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا على اختلاف

40 . يوسف وغليسي ،النقد الجزائري المعاصر اللانسونية إلى االألسنية ، ،ص39
41 . ينظر النقد الجزائري المعاصر اللانسونية إلى االألسنية يوسف وغليسي ، ، ص54
42 . ينظر المرجع نفسه ، ص56
43 . ينظر جاب الله أحمد ، الحداثوية و أثرها في الرواية العربية ، ص17

في الموقـف الأيديولوجـي واختـلاف في البنـاء الفنـي لهـذه الروايـات ، والـذي سـاده نـوع مـن الضعـف خاصـة في البدايـات[44] والحديـث عـن البدايـة الفنيـة الناضجـة للروايـة الواقعيـة في الجزائـر هـو الحديـث عـن روايـة ‹ريـح الجنـوب› لعبـد الحميـد بـن هدوقـة سـنة 1970 ، ثـم بـدأت الروايـة الجزائريـة تتطـور فنيـا تطـورا إيجابيـا سـنة1972 ؛ أي بعـد سـنتين مـن روايـة ‹ريـح الجنـوب› ، وذلـك مـع روايـة الـلاز للكاتـب الطاهـر وطـار ، وهـي تجمـع ملامـح مـن أشـكال سـلوك في واقـع الثـورة الجزائريـة ، وواقـع مـا بعـد الاسـتقلال و مـا أفـرزه الوضـع مـن أفـات مختلفـة (سياسـية وثقافيـة واجتماعيـة) بمسـتوى متطـور في المعالجـة : في الصياغـة وصفـا و تصويـرا بالـسرد والحـوار المبـاشر ، وحديـث النفـس باسـتدراج ذكريـات ومواقـف ومشـاعر وأمـال... [45]

إذن فهاتـان الروايتـان تمثـلان الأرضيـة و التأسـيس لروايـة جزائريـة واقعيـة مكتوبـة باللغـة العربيـة ، ثـم سرعـان مـا اتسـع مجالهـا و تعـدد كتابهـا فبعـد خمـس وعشريـن سـنة مـن كتابـة ريـح الجنـوب تجـاوز عـدد الأعـمال الروائيـة المائـة اختلفـت في درجـة واقعيتهـا ، كـما اختلفت في اتجاهاتهـا الفكريـة والأيديولوجيـة ومسـتويات المعالجـة الفنيـة ، وقـد يبـدو هـذا العـدد ضئيـلا في مقابـل المـدة الزمنيـة (ربـع قـرن) ، إلا أنـه دليـل عـلى حيويـة العطـاء الروائي.هـذه الروايـات الواقعيـة الجزائريـة متأثـرة بالواقعيـة الاشـتراكية ، والواقعيـة النقديـة ، فعبـد الحميـد بـن هدوقـة يبـدو أقـرب للواقعيـة النقديـة في كتاباتـه الروائيـة – وقـد بقـى أسـيرا في مـا بعـد لروايتـه الأولى ريـح الجنـوب - ، أمـا الطاهـر وطـار فهـو أقـرب إلى الواقعيـة الاشـتراكية – وقـد تقـدم في كتاباتـه بعـد الـلاز ، والتي

44 . ينظر عمر بن قينة ، ، ص240 /241
45 . ينظر المرجع نفسه ، ص241

نجـد بعـض الامتـداد لهـا في رواياتـه اللاحقـة -.[46]ولعـل تعصـب جيـل السـبعينات للاشـتراكية جعلهـم يضحـون بكثـير مـن أصالتهـم ومبادئهـم ، ويسـتبدلونها بقيـم أخـرى ، كاسـتبدالهم بعـض الكلـمات العربيـة بأخرى أجنبيـة مـن دون داع.[47]

ثانيا :الرواية وتوظيف التاريخ :

يَضطلـع النـصّ التّاريخـيّ بالتّعبـير عـن وقائـعَ وأحـداث تقـع في أمّـة مـن الأمـم فينقلهـا إلى المتلقّـي خطابـا تاريخيّـا، «نفعيّـا» لا يتجـاوز حـدود تسلسـل الأحـداث وخطّيتهـا، مركّـزا عـلى وصفهـا وصفـا موضوعيّا مُحايـدا. وذلـك إحساسـا منـه بواجـب أمانـة النّقـل ونزاهتـه. ويـأتي الـرّوائي في مرحلـة تاليـة ليتمثّـل تلـك الأحـداث والوقائـع ويسـوغها خطابـا روائيّـا يَهـدف مـن ورائـه أن يكـون فاعـلا في المُتلقّـي بمـا يُقدّمـه إليـه أوّلا مـن جماليّـة سرديّـة خلاّقـة، ومُؤثّـرة، ويَسْـعَى ثانيـا أن يُقنعـه بأنّـه يَكتـب نصّـا أصلـه مُمتـدّ في المـاضي ولكـنّ فرعـه مُسـتحدث، مُحمّل بأوجـاع الحـاضر ومُعضلاتـه.

ف»نجـاح الـروائي ومـن ثـمّ الروايـة في إخضـاع الخطـاب التاريخـي لسـيطرته ، فيقدمـه بطريقـة جديـدة تتناسـب وطبيعـة فعـل الكتابـة الروائيـة ، وهـو مـا يسـهّل عـلى القـارئ الانخـراط في مسـتواها التخييـلي معيـداً تشـكيلها. فينشـأ مـن هـذا التفاعـل بـين القـارئ / الناقـد مـن جهـة ، ومتخيـل الكاتـب مـن جهـة أخـرى ،تأويـل محكـوم بزمـن القراءة في تفاعلـه مـع زمـن الكتابـة وزمـن الخطـاب الـروائي وهـو مـا يسـمح بتعـدد مسـتويات التأويـل انطلاقـا مـن الأزمنـة الثلاثـة في سـياق حـر، ودينامـي، وإبداعـي منفتـح عـلى التاريـخ، مـن شـأنه الكشـف عـن

46 . ينظر في الأدب الجزائري الحديث عمر بن قينة ، ص241

47 . ينظر الحداثوية و أثرها في الرواية العربية جاب الله أحمد ، ، ص20

نسـق العلاقـات التاريخيـة الاجتماعيـة المحـدَّدَة بـشروط المرحلـة الزمنية وآفاقهـا وغاياتهـا»[48].

عـلى أن أهـم مـا ينبغـي التأكيـد عليـه بعـد كل مـا تقـدم هـو أنّ « تمثـل الـسرد الـروائي للتاريـخ ، يحيـل إلى وظيفـة جماليـة مفادهـا تكريـس عمليـة نقـد الواقـع وتجـاوز معطياتـه ، إلى أفـق آخـر يحقق فيه التاريـخ مسـارُه في التطـور التدريجـي ، ورصـد تقلبـات الـذات البشريـة السـاعية إلى تحقيـق إنسـانيتها في ظـل التحـولات الراهنـة .كـما تتحقـق انتاجيـة النـص تبعـا لإمكانيتـه في اسـتثمار عنـاصر التاريـخ وجعلهـا وسـيلة لفهـم الحـاضر وتجـاوز تعقيداتـه وتحديـد خصوصياتـه ، وهـذا مـا يجعـل نـص الروايـة يحقـق أبعـاده الفنيـة والدلاليـة المتميـزة»[49] ،فهـل اسـتطاعت روايـة «الـلاز» للطاهـر وطـار : أن تحقـق هـذه الجماليـة وتمتلـك تلـك الأبعـاد الفنيـة والدلاليـة المتميـزة مـن خـلال اسـتيعاب البنيـة السرديـة لتاريـخ مرحلـة مـن مراحـل الجزائـر تحـت وطـأة الاسـتعمار الفرنـسي والتـي حـاول مـن خلالهـا أن ينقـل للمتلقـي مقاومـة أهـل الريـف لجيـش المسـتعمر الفرنـسي ، ونفـس الوقـت ينقـل معـارك جيـش التحريـر ولذلـك ؟ فهـي روايـة تجسـد أحداثهـا مـن خـلال مـا تقـوم بـه شـخصياتها . وقـد جـاء تصويـر الـلاز للثـورة الجزائريـة مـن الداخـل ينـم عـلى معايشـة الـروائي اليوميـة ووعيـه السـياسي والاجتماعي لأحـداث الثـورة الجزائريـة وأزماتهـا ومشـكلاتها وخلافاتهـا التنظيميـة .[50] ، ولكـن بعـض مـا جـاء في هـذه الروايـة يثـير قلـق المتلقـي حـين تصدمـه بتلـك الصراعـات الهامشـية التـي حدثـت أثنـاء الثـورة والتـي لم

48 . رفيف رضا صيداوي : الرواية العربية بين الواقع والتخييل ، ص101
49 . فتحي بوخالفة : التجربة الروائية المغاربية ، ص86 .
50 . ينظر البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة أحمد محمد عطية ص 27 وزارة الثقافة السورية 1977 ص 254

يكـن دافعهـا الثـورة ، وإنمـا كان دافعهـا التعصـب الأيديولوجـي والـذي لا علاقـة لـه بالثـورة . ولذلـك فهـي روايـة تطـرح جانبـا مـن الـصراع الـذي كان يحـدث بـين رفقـاء السـلاح وقـد شـخصت الروايـة ذلـك في أيديولوجيتـين متضادتـين : أيديولوجيـة دينيـة إسـلامية ، وأيديولوجيـة ماركسـية شـيوعية . وهـي بذلـك تحـاول أن تلفـت الانتبـاه إلى أمـر هـام في سـجل الثـورة ، وهـو الـصراع الأيديولوجـي ، ومـن جانـب ثـاني تعمـل عـلى إظهـار مقاومـة سـكان الريـف للمسـتعمر ودورهـم القـوي أثنـاء الثـورة ومـا كان مسـلطا عليهـم مـن قهـر وحرمـان وظلـم .

لا يجـادل أحـد في أن الروايـة التاريخيـة نـص سردي ، وأن الـسرد هـو الطريقـة التـي يـروي بهـا الـراوي أحـاث قصتـه ، ولكـن الجـدال النقـدي يكمـن في تحديـد إشـكالية الوعـي التاريخـي لأن مهـارة الـروائي وخصوصيـة الروايـة تنبعـان مـن التصـاق الـراوي بمجتمعـه ، ومـن علاقتـه بمـا يرويـه ، ومـن الكيفيـة التـي يـروي فيهـا الحـوادث التاريخية. لقـد عـرف النقـد الـروائي ذو المنهـج التاريخـي ضروربـا مـن محـاولات تقنـين الحقيقـيَ في الروايـة عمومـا، والروايـة التاريخيـة خصوصـا. ولم يكـن غريبـا أن يبـذل أصحـاب هـذا النقـد الوقـت والجهـد في تعديـل النظـرة إلى التاريـخ خـارج الروايـة وداخلهـا، وأن يهتمـوا -كـما هـي حـال جـورج لوكاتـش في كتابـه: الروايـة التاريخية-بالتبئـير التاريخـي، دون أن يسـتعملوا هـذا المصطلـح، تبعـا لاهتمامهـم المبـاشر بصانعـي التاريـخ الحقيقيـين، ونبذهـم التاريـخ الرسـمي وتشـكيكهم في تمثيلـه المـاضي، ولكـن الغريـب أن تتطـوَر الروايـة التاريخيـة خـارج الحقـل الواقعي، وأن تنمـو في اتجـاه تفسـير الحـاضر وفهـم آلياتـه مـن خـلال المـاضي نفسـه، مكوَنـة جماليتهـا الخاصـة، وردود أفعالهـا عـلى الحـاضر، وكأنَ الروائيـين أصبحـوا راغبـين في قـراءة مـا لم يقلـه التاريـخ بأكـثر مـن رغبتهـم في إعادة

إنتاج ما سطَرته التاريخ، أما العناصر الفنية الجديدة في توظيف المادة التاريخية، فتتعلق بالشكل الجديد الذي بني على تداخل الأزمنة وتعدد مستويات الفهم والبناء داخل التجربة الواحدة، واستعمال أسلوب التداعي، والحوار الداخلي. والاتجاه إلى الرمز بدلاً من التصريح والتعبير المباشر.[51]

فاشتغال الرواية على الوثيقة التاريخية هو اشتغال فني بالدرجة الأولى في محاولة لملامسة مقصدية الذات التاريخية التي قد يقصيها كاتب الوثيقة التاريخية من مدونته. من هذا المنطلق فان التاريخ لا يقول نفسه في الرواية التاريخية. إنها الرواية التي يسعى من خلالها الكاتب إلى إقحام الجديد في نسق المسلمات. وبالتالي نقض الأحداث التاريخية بالممكنات و الأمر لا يتعلق بممكنات كونية واقعية بقدر تعلقه ب « ممكنات بنوية تكون مدونة في نسق بنية الثقافة .»[52] ، لذلك ظل العمل الروائي يرفض الأحداث باعتبارها بنت عصرها ورضوخاً لمعيار التاريخية، حتى أنّ هيغل رأى «أن الأساليب ليست تعابير موفقة مبتكرة بالنسبة إلى تعبير كامل، بل كل أسلوب هو تعبير وافٍ عن لحظة من الفن ولحظة من التاريخ»[53]، مما دفع بالرواية أن تشرك الرمز وتعلو على العقل والتفكير فلا تستند إليهما مطلقاً، فضلاً عما يشكلها من التلاعب اللغوي الذي يدفع باللغة إلى الخروج عن معياريتها و مرجعيتها. ولعلّ هذا ما أدركه ابن رشد وسائر الفلاسفة المسلمين الذين اهتموا بالتفريق بين

51 . أحمد المديني: فن القصة القصيرة بالمغرب، ص39.

52 . أمبرتو إيكو، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، طبعة 1، 1996، ص 243

53 . أندريه ريشار، النقد الجمالي، ص:95.

القـول المـوزون وشـعرية القـول، حيـث الشـعرية سـواء في المنظـوم أو المنثـور تكمـن في إخـراج القـول غـير مخـرج العـادة، وتحريفـه عنهـا[54]، ولمّـا كانـت الأحـداث التاريخيـة منجذبـة بـين قطبـين، قطـب يتمحـور حولـه مـا هـو مرجعـي يمثـل التاريـخ بـكل حيثياتـه، (الوقائـع، الأماكـن، الشـخصيات، التواريـخ....)، وقطـب آخـر مثلـه الخيـال بمـا فرضـه مـن طقـوس تخضـع لـه شـعرية العمـل الـسردي مـن خـلال غايـة الـروائي التـي تنحـصر في هاجـس الكتابـة بـكل مـا تفرضـه عليـه، وعندهـا يكـون «اخـتراع الكتابـة حركـة، تخـترق مـؤشرات الزمـن ومعطيـات القيـاس، قدرتهـا فـوق قـدرة صاحبهـا. سرعتهـا تسـاوي وتفـوق سرعـة التاريـخ»[55].

لكـن لمـاذا توظيـف التاريـخ ؟، فهـل هـي تجـاوز للتاريخـي أم إحضـار لـه في واقعنـا المعيـش؟، أم هـي إعـادة قـراءة ورؤيـة فاحصـة لـه؟، أم هـي بيـان بعجـز الواقـع الحـاضر عـلى انجـاز أحـداث عـلى قـدر مـن الأهميـة كالتـي أنجزهـا ذلـك الواقـع التاريخـي؟، أم أن الأحـداث الروائيـة هـي مـرآة للتاريـخ تأخـذ طبيعـة التحديـب أو التقعـير حسـب رؤيـة الـراوي لتلـك الأحـداث؟.إذا أردنـا الوقـوف عـلى هـذه التسـاؤلات علينـا أن نسـتحضر نمـاذج مـن الكتابـات الروائيـة التـي وظفـت المـادة التاريخيـة في أعمالهـا الإبداعيـة .

ومـن الشـخصيات التاريخيـة التـي اسـتقطبت الكتابـة الروائيـة نجـد شـخصية الأمـير عبـد القـادر الجزائـري ولأنهـا شـخصية عظيمـة ربطـت المـاضي بالحـاضر وفـكان حضورهـا عالميـا في الحـرب والسـلم اتخذهـا العديـد مـن المبدعـين مـادة لإبداعاتهـم ، حيـث ظهـرت في

54 . ينظر: أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمة وتحقيق وشرح: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة: 1953م، ص: 162، 243.

55 . محمد طبيبي، اختراع التاريخ مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد: 15، أفريل سنة:2001م، ص:137، 138.

روايـة: «عواصـف جزيـرة الطيـور لجيـلالي خـلاص» و «رائحـة الأنثـى للـزاوي أمـين» غـبر أن روايـة (: **كتـاب الأمـير**) [56] لواسـيني الأعـرج هـي الروايـة الأولى الموقوفـة عـلى الأمـير، وهـذه الروايـة تـوالي تفتيـق السـؤال الكبـير: سـؤال الروايـة والتاريـخ، وتقـترح إجاباتهـا عليـه، معمقـة بذلـك مـا سـبق للكاتـب أن قدمـه في أكـثر مـن روايـة، وكذلـك مـا سـبق لغـيره مـن أعـلام الروايـة العربيـة أن قدمـوا. وقـد جـاءت روايـة الأعـرج في ثلاثـة أبـواب يبـدأ كل منهـا بفصـل (الأميراليـة) وتليـه عـدة وقفـات. وينفـرد البـاب الأخـير بعـودة (الأميراليـة) في ختامـه كخاتمـة للروايـة؛ وعـبر ذلـك لا يفتـأ الزمـن يتقـدم ويتراجـع بالتواريـخ المثبتـة، سـواء في مطالـع الفصـول والوقفـات أم في ثناياهـا، و مـن هنـا فـإن روايـة (الأمـير) ليسـت تمثيـلا و لا اختـزالا للتاريـخ ووقائعـه الموضوعيـة بقـدر مـا هـي تعديـل و تحويـل و انتقـاء و اسـتبعاد في الآن نفسـه، تحويـل يتجـلى أساسـا في موقـف الـراوي (النـص) مـن ذاتـه الحضاريـة و مـن هويتـه التاريخيـة و الثقافيـة و هـو موقـف يشـوبه الانفصـام و التمـرد و رفـض الـذات. فالـراوي و عـلى لسـان شـخصيته (الأمـير) يديـن ماضيـه و يتـبرأ مـن تاريخـه و ينسـلخ مـن جـذوره (أعـرف أن الزمـن الـذي عشـناه مـع أوليائنـا و أجدادنـا قـد ولى نهائيـا و علينـا أن نقنـع أنفسـنا بأنـه ذهـب و إلى الأبـد)[57] ، تهيـئ هـذه الجملـة بجزئيهـا الرئيـسي والفرعـي أفـق تلـق مناسـب للنـص، مؤطـرة إيـاه بإطـار تاريخـي. لكـن يبـدو أن العنـوان الرئيـسي «كتـاب الأمـير» ينطـوي عـلى افتقـار ذاتي بوصفـه بنيـة ثابتـة تضـع المتلقـي وجهـا لوجـه أمـام التاريـخ كـما هـو. فكلمـة كتـاب تشـل توقعـات المتلقـي، الـذي قـد يتصـور أنـه بصـدد تلـق كتـاب تاريخـي عـن الأمـير عبـد القـادر و ليـس نصـا سرديـا . لكـن يخـرج عـن هـذه

56 . كتاب الأمير ، لواسيني الأعرج دار الآداب، ط 1، بيروت 2005

57 واسيني لعرج- رواية (الأمير)- دار الأدب- بيروت-ط:-2005-1ص:127.

الدائـرة الدلاليـة المغلقـة عنـوان فرعـي «مسـالك أبـواب الحديـد». وهـو بنيـة متحولـة وسـعت المسـاحة الصياغيـة والدلاليـة للعنـوان الرئيـسي [58] لتتولـد بذلـك توقعـات المتلقـي للعنـوان والنـص معـا ، لأننـا إذا اعتبرنـا النـص كتابـا تاريخـا « باتـت كل محاولـة للقيـام بتوقعـات ... عديمـة الجـدوى».

والأسـئلة المَطروحـة في مثـل هـذا العمـل هـي، كيـف تتـمّ عمليّـة التّقاطـع بـين المَرْجعيّـة التّاريخيّـة والجَماليّـة السّرديّـة كي نقـول إنّ هـذا العَمَـلَ يَنـدرج فعـلا ضمـن جنـس الرّوايـة التّاريخيّـة؟ ثـمّ مـا هـي الآليـات المُسـتعملة كي يَعتمـدَ المُؤلّـف النـصّ التّاريخـيّ ويُخرجَـه إخراجـا فنّيـا؟ كيـف يَتمثّـل النـصّ الـرّوائيّ التّاريـخَ وكيـف يُفارقـه؟ وهـل يُمْكِـنُ أنْ نجْـزِمَ بتاريخيّـة روايـة «الأمـير»، خاصّـة عندمـا نُـدْرِك أنّ «التّاريـخ شـأنُه شـأن الرّوايـة خِطـاب سرديّ، ومَهْـمَا بالغنـا في إسـباغ البُعْـد المَرْجِعـي عليـه يظـلّ خِطابـا مُنْجـزا في مَقـام مُحَـدّد تتحكّـم فيـه اعتبـارات شـتّى توجّهُـه وتُـضيء مَسَـالك قراءتـه، وكـذا الشّـأن بالنّسـبة إلى الرّوَايـة، فَهْـي وإن بـدت خطابـا تخييليّـا، لا تنقطـع صِلتهـا بالمَرجـع انقطاعـا تامّـا»، مـما يجعـل مـن الأحـداث التـي تقابـل التاريـخ بـكل مكوناتـه غـير متخـذة لمعناهـا الكامـل إلا في العـصر والمـكان اللذيـن وقعـت فيهـما، فـلا يمكنهـا أن تكـون كذلـك في أي زمـان أو مـكان آخريـن إلاَّ إذا مـورس عليهـا نـوع مـن التدليـس والإيهـام، لأنهـا سـوف تكـون بدونهـما مجـرد اجـترار لهـا.

٥٨ – محمد فكري جزار، سيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص 17.

ثالثا: رواية التجريب :

والتجريب مصطلح مأخوذ من العلوم التجريبية، حتى أنه علم عليها، وهو يأتي بمعنى الاختبار لمصداقية الفرضية العلمية. وقد دخل إلى العلوم الإنسانية بطرق عدة، وتحقق في الرواية على يد المدرسة الواقعية، التي قامت على أساس اختبار القدرة على تجسيم مشاكل الواقع بدقة، والتجريب بهذا المعنى يعني اختبار مصداقية محاكاة السرد الروائي الواقع، لكن التجريب في السرد انحرف ليعني معنى مخالفا لما وضع له المصطلح في بيئته الأصلية، فأصبح يعني اختبار أوضاع ومناطق مختلفة غير مألوفة من الواقع، أو هو محاولة اكتشاف طرق جديدة مختلفة للنظر للواقع، عبر استخدام تقنيات ووسائل حديثة ، ويكون التجريب في الشكل كما في المضمون عبر اختيار بيئات وأبطال وأحداث فانتازية، وبما أن التجريب قاعدته الاختلاف والتمرد، فليس هناك قاعدة تحدد تقنياته، لذلك فقد ارتاد المبدعون الوسائل ، ومنها توظيف تقنية «ما وراء السرد."إذ يهدف المبدع حين يلجأ للتجريب لاجتذاب القارئ عبر طرح أسئلة جديدة وطرق مختلفة عما يألفه، والتجريب بهذا المعنى جزء من معنى العملية الإبداعية، إذا كان الإبداع بمعنى الاختراع والابتكار.

لقد رسم هذا الجيل رؤيته الخاصة المخالفة، فجدد في الوسيلة ليتغير الشكل ، ويأتي المضمون أكثر جرأة، وأكثر عنفاً. وقد وظف في ذلك بكل الوسائل الفنية ليغدو النص مفتوحاً على كل القراءات ...لكن هذا لا يعني أن مبدعي هذه الحقبة قد استطاعوا أن يتمثلوا مفهوم التجريب بأبعاده الفنية والفلسفية فلقد حاول بعضهم الاستفادة من تجربة القصة الجديدة بوعي إبداعي، غير

أن بعضهم الآخر لا يزال يتلمس طريقه، لأن التجريب على المستوى الفني لا يعني الفوضى أو الكتابة الغامضة.....

ومع هذه التحولات، تغيرت عدة مفاهيم كانت توظف أو هي من مرتكزات العمل الفني، بحيث أصبح مفهومها أكثر انفتاحية وجمالية قياساً بما كانت توظف به في نصوص سابقة، وهذا المنطق في التطور، لا نخاله غريباً بحكم قناعتنا بضرورة التجديد في جميع المجالات. ولعل من أهم هذه العناصر التي تغير مفهومها في النص الأدبي الجديد-والقصصي على وجه التحديد هو الزمان، والذي يعد عنصراً ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه في بناء الحدث القصصي.

إن القارئ المعاصر قارئ فاعل نشط ، ولنقل : إنه قارئ مبدع يبث نشاطه عبر النص لينجز إبداعاً جديداً ، ومن هنا تتبين لنا أهمية التجريب في تطوير هذا التكامل المعرفي الأخاذ بين منظومة الاتصال الثلاثية (المؤلف ـ النص ـ القارئ)، أما الرواية في صيغتها الأحدث لم تعد ذلك النص الذي يقرأ لوظيفة جلب النعاس على سرير النوم، ولكنها تقرأ كي تخضع للبحث والتتبع والاستقصاء الذي يخلق جوا معرفيا شموليا، إنها طاقة معرفية متنوعة ينهل منها القارئ ويضيف إليها من وعيه وثقافته، إنها قراءة تكاملية لا يتحقق للنص الروائي وجوده دون وجود القارئ الفاعل ، إذ لا يكتسب النص الروائي فاعليته دون قارئ فاعل وإلا أصبح الكتاب الذي يضم العمل مجرد شيء مادي لا قيمة له ما لم يفعل بالنشاط القرائي.

ويظل مفهوم الرواية تبعا لذلك مفهوماً متغيراً قابلاً للتطور، ولو لم يكن كذلك لما كانت مجالاً لخلخلة المفاهيم وممارسة الهدم

مـا شـكل مسـارات مهمـة في الروايـة العربيـة عامـة فـكان التجريـب الـذي وظـف آليـات مختلفـة في الكتابـة الروائيـة وخلـق ملامـح متنوعـة للمنجـز الـروائي التجريبـي ومـن أبـرز هـذه الملامـح : التهشـيم المتعمـد للبنـى السرديـة التقنيـة المتصلـة بالـراوي والزمـن والمـكان وغـير ذلـك ، ونسـج بنـى جديـدة عـلى أطـلال ذلـك . إلى جانـب غلبـة التذويـت ومـزج الخطابـات الأخـرى وتغليـب الفـن العجائبـي (الفانتـازي) واسـتعارة تقنيـات الكتابـة الشـعرية الجديـدة .

إن مثـل هـذا التوظيـف الـذي جعـل الروايـة حقـلاً لممارسـة أنواع مختلفـة مـن التجريـب، مارسـه عـدد مـن الروائيـين الجزائريـين ولقـد اسـتطاع واسـيني الأعـرج أن يثبـت حضـوره في عـالم الروايـة التجريبيـة في هـذا القـرن الحـالي بـدءا مـن (وقـع الأحذيـة الخشـنة) و(نـوار اللـوز) و (فاجعـة الليلـة السـابعة بعـد الألـف (و(المخطوطـة الشرقيـة) و (شرفـات بحـر الشـمال) و نصـوص المحنـه (« سـيدة المقـام « و « حارسـة الظـلال « و « ذاكـرة المـاء «) الـخ... فقـدم نصوصـا مميـزة ومقـروءة لـدى مسـتويات متباينـة مـن القـراء غـير محكومـه بنمـط محـدد مـن التلقـي أو بمرجعيـه واحـده عـلى المسـتوى الثقـافي فكانـت رواياتـه تتسـم بـروح التجريـب بشـكل عـالي اسـتطاع تطويـر أسـلوبه ولغتـه .يشـير عبـد الملـك مرتـاض إلى أنـه «يسـتحيل أن يفلـت كائـن مـا، أو شيء مـا أو فعـل مـا، وتفكـير مـا، أو حركـة مـن تسـلط الزمنيـة»[59] وهكـذا ارتبـط هـذا المصطلـح بالفكـر الفلسـفي، فأضفـى عليـه هـؤلاء الباحثـون أبعـاداً غايـة في التجريـد، فـكان محـوراً لعـدة أسـئلة ارتبطـت بالكـون، والوجـود، بحيـث لم يعـد ينظـر إليـه بتلـك الحقبـة الكرونولوجيـة التـي اعتمدتهـا النظـرة النقديـة القديمـة.

59 –عبد الملك مرتاض–ا.ى– دراسة سيميائية تفكيكية– ديوان المطبوعات الجامعية 92 ص121

فالزمن هو تلك المادة المعنوية المجردة التي يتشكل منها إطار كل حياة، وخبر كل فعل، وكل حركة، وهي ليست مجرد إطار بل هي جزء لا يتجزأ من كل الموجودات وكل وجوه حركتها، ومظاهر سلوكها، لذلك وجد مفهوم الزمن في كل الفلسفات تقريباً.

ولقد توصل الفكر البشري، وهو يتأمل ظاهرة الزمن أنه ليس فقط الأبد والخلود كما تفسره المعتقدات والأديان، ولا هو حركة توالي الليل والنهار، بل هو يشمل ميادين كثير من الوجود البشري»[60].

ولعل لهذا التعدد في المفاهيم وانفتاح الفكر البشري على قراءات جديدة لدلالات الزمن، قد أفرزت أزمنة مختلفة ارتبطت بالظاهرة الكونية والفكرية في آن واحد. فهو -الزمن- إن كان من إحدى المقولات الأساسية التي اعتنى بها النحو التقليدي، فإنها إحدى أهم المقولات التي سيعيد البحث اللسانياتي طرحها ومساءلتها من منظور جديد»[61]. فصنفت من هذا المنظور -الأزمنة- تبعاً لمرجعياتها، كالزمن الديني، والأسطوري والنفسي...قد لا يكون الأمر هينا في مجال الدراسة والمقارنة أن يصل الباحث إلى نتائج نهائية لأن ذلك يضحى من تخمينات المثالية المطلقة، خصوصاً، في موضوع جديد بدأت ملامحه تتشكل شيئاً فشيئاً بعد تحول ثقافي واجتماعي، ولعل ذلك ينطبق على هذا العمل الذي يحاول أن يتلمس تجربة جيل جديد من القصاصين الجزائريين وهم يؤسسون عالمهم الإبداعي الخاص، انطلاقاً من اختلاف في الرؤية،

60 -انظر-عبد الصمد زائد مفهوم الزمن ودلالته- الدار العربية للكتاب- ليبيا88 ص7

61 -سعيد يقطين- تحليل الخطاب الروائي- المركز الثقافي العربي بيروت 89 ص63.

والتصور، ومن تناصية مرجعها تغيير خريطة الإبداع العالمي، وتطلع إلى الأرحب، ومساءلة الإبداع في جوهره. وكانت بداية هذا الجيل محاولة الدخول في تجربة تتخلخل فيها الطابوهات لتتحول إلى تمرد على الجاهز، وتحرر من قيود النص النثري الكلاسيكي ،وكان أن ظهر ذلك من توظيف جديدة للغة ، ثم تغير مفهومهم للزمان والمكان، وطرائق السرد الحديثة.... مخالفين في ذلك جيلاً سبقهم، ظل يحافظ على عمودية النص ليصل به إلى مضمون كان عليه أن يقدمه مهما كان الأمر.

إن روائيي الجيل الجديد -ومع تجدد الرؤية، وما قدمته نظريات القراءة، والنقد الحديث من مفاتيح إجرائية تخص النص الأدبي- قد أصبحوا يحتالون تقنياً في التعامل مع الزمن، فلا يعبرون عنه بأدواته الصريحة، وهي الأفعال النحوية، بل نراهم يتوصلون إلى ذلك من خلال إعطاء «وظيفة زمنية لوحدة مفترض فيها الصفات الاسمية، أي الصفات اللازمانية، فإذا هذه الوحدة تتنكر لأصلها، وتخرج عن خاصيتها فتحتمل من مدلول الزمان ما يجعلها زماناً حياً له ظلال وأبعاد»[62].

وهذا يعني إن كتّاب هذه الفترة قد تعاملوا مع التاريخ تعاملاً أقرب إلى الأدبية منه إلى المنطق لأنهم أدركوا بعده الجمالي في تأسيس بنية سردية تخالف البنية التقليدية التي توظف الزمن بمفهومه الطبيعي المتتابع، ولذا أصبح النص الجديد يتعامل مع الزمن تعاملاً غير خاضع لنظام التسلسل، أو المنطق التاريخي أي منطق الزمان التقليدي نفسه»[63]، وهذا التمرد على التقليدية في

62 -عبد الملك مرتاض- النص الأدبي من أين وإلى أين- ص87
63 -المرجع السابق ص83

فهـم الزمـن جعـل مـن أعمالهـم القصصيـة نصوصـاً مفتوحـة متحـررة مـن سـكونية البعـد المـكاني، ومطلقـة في زمـن مطلـق لا يخضـع لسـلطة المضمـون، وهـم بالتـالي يحررونـه -هـذا الزمـن- مـن زمنيتـه التـي يسـتغرقها في الحيـاة الواقعيـة، ليمتـد خـارج التاريـخ المـادي، «إن الحـدث في القصـة الجزائريـة الجديـدة تتنازعـه أزمنـة مختلفـة فهـو زمن تداخـلي. «فالـدلالات التـي يمكـن اسـتخلاصها مـن خـلال دراسـته لا تتبـع خطـاً مسـتقيماً يمكـن تحديـده سـلفاً»[64]، فروايـة التجريـب مـرآة نـرى مـن خلالهـا الحـاضر ولـن تكـون الرّوايـة التّجريبيّـة بِمَنـأى عـن الرّوايـة التّاريخيّـة « فهـي منطقـة وسـطى بـين التّاريـخ والأدب، يؤلّـف بينهـما أنّ كلاّ مِنهـما خِطـاب سَردي، إلاّ أنّ التّاريـخ خطـاب نفعـيّ يَسْـعَى إلى الكشـف عـن القوانـين المُتحكّمـة في تتابـع الوَقائـع في حـين أنّ الأدب والرّوَايـة عـلى وَجـه الخُصـوص خِطـابٌ جَـمَاليّ تُقـدَّمُ فيـه الوظيفـة الإنشـائيّة عـلى الوظيفـة المَرجعيّة.وما أشـار إليـه سـعيد يقطـين يكتـب معـززاً كل ذلـك، ومحـذراً مـن خسـارة الروايـة العربيـة للقـارئ، ومـن سـعيها إلى القـارئ المفـترض وتضييعهـا للقـارئ الحقيقـي، ومـن مغالاتهـا في التجريـب ونـدرة النـص الجديـد اللافـت، وهـو مـا سـيجعل الروايـة العربيـة تسـتنفد دورهـا، وتنتهـي إلى مـا انتهـى إليـه الشـعر منـذ عقـود. وآيـة ذلـك كـما يرسـمها سـعيد يقطـين هـو بـروز روايـات عديـدة و روائيـين جـدد، وافتقـاد الكتـاب الحقيقيـين والروايـات الجديـرة بالقـراءة وسـط هـذا الزخـم، حيـث تتكـرر التجـارب ويقـل الإبـداع «فهـل ينبـئ هـذا الوضـع بالكارثـة»[65].

64 . الياس الخوري- الذاكرة المفقودة ص227
65 . مجلة علامات، العدد 20، الرياض 2003

إن التطـور الهائـل في وسـائل الاتصـال وثـورة المعلومـات قـد أثـر في الإبـداع العـربي برمتـه والجزائـري عـلى الخصـوص، ولا سـيما الروايـة ونقدهـا، فطالـت التحـولات العميقـة الكتابـة الروائيـة والقصصيـة ونقدهـما، وهـي تحـولات جذريـة لا سـبيل للخـلاص منهـا، لأنها لامسـت الثقافـة العالميـة، وآدابهـا في الجوهـر وفي الشـكل. و ويلاحـظ ذلـك في روايـة التجريـب وهـي روايـة اسـتهلاكية و تأثـرت بموجة وسـائل الاتصال الجديثـة، وثـورة المعلومـات، وقـد ظهـرت بوادرهـا في الثمانينيـات في الكتابـة لوسـائل الاتصـال بالجماهـير كالصحافـة والإذاعـة والتلفـاز والسـينما، ، لكـن كانـت ثمـة شروطاً يفرضهـا منتجـوا البرامـج والأشرطـة التلفزيونيـة والسـينمائية والإذاعيـة أو ممـول المـسرح أو نـاشر الجريـدة أو المجلـة لقبـول إعـادة إنتـاج الأدب عـبر هـذه الوسـائل وقنـوات الاتصـال، لأنهـا كانـت تتحكـم فيهـا عـن قوانـين السـوق التجاريـة، ولكـن تأثـير جماليـات الروايـة بمعطيـات التغيـير الثقـافي كان في بدايتـه .

ومـع ظهـور الأنترنـت وسـهولة النـشر والدعايـة ظهـرت أمـواج كبـيرة لا حـصر لهـا لا زالـت تتشـكل في هـذا العـالم الافـتراضي فأعيـد النظـر في صياغـة معايـير الروايـة وتوجيـه جمالياتهـا ونقدهـا مـما يسـتدعي مـن ثقافـة نقديـة جديـدة تطـورت الكتابـة الروائيـة في منحـى الاسـتهلاك الـذي يـراد منـه التسـلية إلى إدخـال الروايـة والقصـص بشـكل عـام في دائـرة تجميـل الواقـع مـن أجـل قبولـه، وهـو وضـع يـكاد يشـبه وضـع المتلقـي في بهـرج التعلـق مـما عرضتـه المسلسـلات العربيـة في تزييـف الواقـع العـربي واللعـب عـلى وصـف الأحـلام، ثـم بـدأ إقبـال جيـل جديـد مـن الروائيـين والقصاصـين عـلى الكتابـة لوسـائل الاتصـال الاجتماعـي لازالـت مسـتمرة وخلخلـت تفكـير الـروائي والقـاص الأدبي ذاتـه، وتأثـرات جماليـات الروايـة والقصـة بـشروط هـذه الوسـائل، أي

أن الكاتب صار معنياً بقابليات ظهور روايته أو قصته في مسلسل تلفزيوني أو فيلم سينمائي أو مسلسل إذاعي أو طهورها على صفحات الفايسبوك أو تويتر قبل مراعاته لصدورها في كتاب، وصار اهتمامه بما يتفاعل به من نقد أكثر مما ينشر له .

إن الساحة الأدبية عندنا من الخصوبة بحيث تجعلنا في أمسّ الحاجة إلى ممارسات نقدية، ممارسات تستفيد من عثرات النقد السياقي من جهة، ولا تكتفي –من جهة أخرى- بإسقاط النظريات الجديدة على النص العربي، وتخادعنا بالعمليات الرياضية ورسم الجداول فتحوم حول النص ولا تطال أبعاده، و الساحة الأدبية اليوم تعرف كما لا يخفى جيلاً آخر يجرّب الإبداع القصصي القصير على فضاء الانترنت وتنبئ أصواتهم بمستقبل واعد للقصة التفاعلية،، ولعل ما كتب سعيد يقطين مشخصاً التحدي الذي يواجه نقد الرواية العربية عموما هو الاستمرار في تجديد إمكاناتها وتقنياتها وعوالمها الحكائية وأشكال تعاملها مع التبدلات الواقعية الكبرى. فعلى الرغم من كل ما حققته الرواية العربية خلال عقود قليلة، أدركتها المنغصات. وفي الكثير من التمثيلات السابقة للعرس من ذلك ما فيه، كما رأينا. وقد شرعت بعض الأصوات الروائية الجديدة تصدع بذلك بدعوى التجاوز والقطيعة مع ما سبق، وهي الدعوى التي لا تؤكدها غالباً نصوص أصحابها. إلا أن الأهم هو أن ترتقي الكتابة الروائية العربية، وأن يرتقي نقدها أيضاً، إلى مستوى التحدي، بتجديد الذات والتجربة قبل فوات الأوان. وهنا يصير النذير بشيراً وهو يومئ ـ مثلاً ـ إلى قراءة المبدع لتجربته قراءة نقدية، والتبصّر في التحولات المحلية والكونية، أو إلى نضج مساهمة الكاتبات، أو إلى غير ذلك من أسرار التخييل الروائي.

مصادر البحث ومراجعه :

1 ــ إبراهيم عباس :تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية: و.و.ن،إ.. ،2002 الجزائر .

2 ـ إبراهيم فتحي- الخطاب الروائي و الخطاب النقدي في مصر- الهيئة المصرية العامة للكتاب- العام: 2004.

3 ــ أبو العيد دودو ، بحيرة الزيتون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2 ، 1992 .

4 ــ أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمة وتحقيق وشرح: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة: 1953م،

5 ـ أمبرتو إيكو، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، طبعة 1، 1996.

6 ــ دراسات في الأدب الجزائري الحديث أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1985

7 ــ رشيد بنحدو- الرواية و الواقع- الدار البيضاء- عيون المقاولات-ط:1988-.

8 ــ شايف عكاشة ، نظرية الأدب في النقد الواقعي العربي المعاصر ، ديوان المطبوعات الجامعية ،بن عكنون ،الجزائر، 1994

9 ــ صالح مفقودة ،أبحاث في الرواية العربية ، دار الهدى ،عين ميلة- الجزائر ،ط1 ،2008 ،

10ـ عبد الله الركيبي تطور النثر الجزائري الحديث، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ،1967م .

11ـ عبـد المالـك مرتـاض (في نظريـة النقـد) ، دار هومـة للطباعـة والنـشر والتوزيـع ، الجزائـر،2002

12 ــ عبـد المالـك مرتـاض: (الكتابـة مـن موقـع العـدم) ، دار الغـرب للنـشر والتوزيـع، وهـران، الجزائـر

13 ــ عبـد الملـك مرتـاض-ا.ى- دراسـة سـيميائية تفكيكيـة- ديـوان المطبوعـات الجامعيـة 92 .

14 ـ عمريـن قينـة :الأدب الجزائـري الحديـث ، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة بـن عكنـون ، الجزائـر 1995.

15 ـ محمـد مصايـف ، النقـد الأدبي الحديـث في المغـرب العـربي ، المؤسسـة الوطنيـة للكتـاب ، الجزائـر، ط 2، 1984 ،

17 ـ مخلـوف عامـر ، الواقـع والمشـهد الأدبي ،المكتبـة الوطنيـة الجزائريـة -الجزائـر ،2011م،.

18 ــ واسـيني الأعـرج، اتجاهات الروايـة العربية في الجزائر، المؤسسـة الوطنية للكتـاب ،الجزائر،1986م،

19 ــ يوسـف وغليـسي ، النقـد الجزائـري المعـاصر مـن اللانسـونية إلى الألسـنية ، المؤسسـة الوطنيـة للفنـون المطبعيـة ، الجزائـر ، 2002